الفصل الخامس:

القصص الأمريكية
ورواية القصص لأمريكا

الأحداث الجسام والجرائم النكراء تسبب صدمة للناس، وتشكل اعتداء على الروح الجمعية. كما تتطلب نصبا عامة لتخليد ذكرى الضحايا، وكلمات وعلامات ورموزا. وحين تحدث الرئيس جورج بوش في جلسة مشتركة للكونغرس في العشرين من أيلول/ سبتمبر 2001، علق قائلا: "الأمريكيون يسألون: لماذا يكرهوننا؟"، ثم قدم جوابا مباشرا: "لأنهم يكرهون حرياتنا - حريتنا الدينية، حريتنا في التعبير والكلام، حريتنا في التصويت والانتخاب، والتجمع، والاختلاف في وجهات النظر". لقد أيقظ الخطر أمريكا واستدعيت للدفاع عن الحرية، كما قال. وأضاف: "وبغض النظر عما إذا أحضرنا أعداءنا إلى العدالة أو أرسلنا العدالة إلى أعدائنا، سوف نطبق العدالة عليهم". وفي أول خطاب متلفز للرئيس بوش حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر، قدم نفس الجواب بكلمات تذكر بتطلعات ومطامح المستوطنين الأوائل: "استهدف الهجوم أمريكا لأننا المنارة الأكثر إشعاعا للحرية والفرص المتاحة في

العالم. ولن يستطيع أحد أن يمنع هذا النور من الضياء والتألق". علاوة على ذلك، أعلن في خطابه السنوي إلى الكونغرس أن حالة الاتحاد بينة بجلاء في ردة فعل الأمة على أحداث الحادي عشر من سبتمبر: فرق الإنقاذ تجاوزت حدود الإنهاك في العمل، الرايات الأمريكية خفقت مرفرفة في كل مكان، مسلك المواطنين المترعين بمشاعر الحب والتضحية والعطاء. لقد تأثرت أمريكا برؤية أعضاء الكونغرس يتجمعون على درجات مبنى الكابيتول مساء الحادي عشر من سبتمبر، لينشدوا معا: "ليبارك الله أمريكا".

في الخطاب المنمق المؤثر والرموز الدلالية، كانت "فكرة" أمريكا، فكرة أمريكا عن ذاتها، هي التي احتلت مركز الوعي الوطني منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر. حب الوطن ليس سمة تتفرد بها أمريكا، ولا يمكن ازدراؤها. لكن المسألة تكمن في كيفية استغلال هذا الإحساس بالهوية لوضع قيود على/أو استخدامه كبديل للحوار السياسي حول السياسات والأفعال والإجراءات التي اتخذت باسم الأمة داخل الوطن وخارجه.

لا توجد أمة على وجه الأرض تطفح صورتها الذهنية الوطنية في الكلمة، والأغنية، والرمز مثل أمريكا. ولا توجد

أمة تتفوق عليها في استخدام رموزها للتعبير عن فكرة الذات التي هي نظرة صريحة للتاريخ، والمجتمع، والرسالة الوطنية. الخطاب الأمريكي المنمق المثير والتراث السردي الأمريكي يتشكلان بواسطة رؤية أسطورية مؤمثلة خلقت عن وعي وتعمد، ولقنت بجهد دؤوب، وفرضت فرضا على المواطنين الجدد الذين سيصبحون أمريكيين. في فترة حاسمة من عملية تكوين المجتمع الأمريكي الحديث، وجدت هذه الرؤية الأسطورية الخيالية وما تحتويه من روح الشعب والوطن، التعبير عن نفسها في السينما. وهذا ما عبر عنه فرانك بيرسون رئيس "أكاديمية فنون السينما والعلوم"، في خطابه خلال حفل توزيع جوائز "الأوسكار" عام 2002. ففي السنوات المبكرة من القرن العشرين - حين كان المهاجرون الجدد، الذين شكلوا أضخم موجة تدفقت على أمريكا، يخضعون لعملية تحول كي يصبحوا أمريكيين - وفرت الأفلام الصامتة لغة سينمائية مشتركة للسكان الذين لم يتعلموا الإنكليزية بعد، حسب رأيه. وكان بمقدوره أن يضيف أن الأفلام السينمائية عرفتهم بالرؤية الأسطورية المثالية، "رأسمال" القصص والحكايا وقيمها المشفرة، فكرة أمريكا. ومن خلال السينما والتلفزيون، لم تكتف أمريكا برواية وسرد القصص التي تشكل رؤيتها الأسطورية المثالية الخاصة بها وحسب، بل صدرتها إلى العالم الخارجي

باستخدام هيمنتها على الثقافة الشعبية ووسائل الترفيه والتسلية العالمية. العالم كله مطلع على فكرة أمريكا وفكرة أمريكا عن الذات. لكن بدلا من توفير ما دعاه بيرسون "لغة عالمية" للنقاش حول الأحداث المهمة، فإن الأسطورة الأمريكية تعمل على تطويق وتحديد الحوار، وخنق المعارضة، وتأجيج مشاعر العداء والخصومة.

علاوة على أن الرواية الأمريكية المتزمتة، تقرأ بصورة مختلفة تماما من خارج أمريكا، من منظور باقي سكان العالم وتجربتهم التاريخية. وبدلا من أن يؤكد هذا المنظور على اعتبار أمريكا أفضل أمل للبشرية، فهو يكشف حقيقة أن أمريكا هي المحرك الرئيس والمستفيد الأول من العمليات والأنساق التي تخلق وتؤبد عالما من الأغنياء والفقراء، والمهمين والمهمشين، والسادة والأتباع، والحكام والمحكومين. ومن وجهة نظر وتجارب الدول النامية، هنالك إضافات كثيرة على القصة الأمريكية تتجاوز ما تعترف به رؤيتها الأسطورية. لقد أصبح إيمان أمريكا بأسطورتها الوطنية كنموذج يحتذى لكل الأمم عاملا رئيسا هيمن على مسرح العالم في أعقاب الحرب العالمية الثانية. هذه النظرة العنيدة الصلدة الأحادية التركيز جرى تلقيها كشيء أكثر من مجرد عقيدة غيرية تؤثر الآخرين. فقد بدا

موقف أمريكا تجاه العالم استعمارا جديدا، مختلفا، لكنه لا يتميز عن ممارسات القوى الاستعمارية المتنوعة التي ظلت تشوه طموحات وتطلعات ثلاثة أخماس البشر طيلة قرون عديدة. وفي الحقيقة، وضع مسعى تحقيق الحلم الأمريكي، باعتباره تراكما لكافة الأشكال الاستعمارية السابقة، ونظام عالميا سائدا، القاعدة المؤسسة للإمبريالية المفرطة القوة والنفوذ، حيث تعتبر أمريكا العالم فناءها الخلفي، ينبغي معرفته والتعامل معه وفقا للشروط والتعابير الأمريكية الصرفة.

إن استخدام التاريخ واللجوء المتغطرس للمثل الأسطورية باعتبارها حقيقة، داخل أمريكا نفسها وفي السياسة الأمريكية المتبعة تجاه بقية دول العالم، يمثلان قضايا سياسية مهمة يتوجب إخضاعها للنقاش والحوار. وحين تهمش الانتقادات الموجهة للولايات المتحدة من الداخل، وتتعرض للإدانة والشجب والذم والقدح، فهل نعجب حين تعتبر بمثابة موقف عدائي عندما توجه من العالم الخارجي؟ أو كما عبر عن ذلك لويس لافام، محرر "مجلة هاربر" عام 1997:

أعجب كيف يمكن لمجتمع أن يستمر في البقاء لمدة طويلة اعتمادا على تعريف الحقيقة بأنها قبول الكذب، أو عبر إصدار تشريع لا يمكن تطبيقه، أو عبر الظن بأن

الحرية صندوق ادخار يورَّث عند الولادة ويبقى طيلة الحياة... [1].

ثمن الحرية هو التيقظ والحذر والاحتراس إلى الأبد، وتلك حكمة مأثورة استخدمت غالبا لتعزيز وتمكين دولة الأمن القومي وسياستها الخارجية، وبالتالي تعقيد المشكلة. هنالك نوع آخر من الحذر والاحتراس لا يحتاج إلى منع تفحص الذات، أو إعاقة تقصي أفكارها ودوافعها ومشاعرها، ولا يحول دون الحوار حول إخفاقات الحرية الحقيقية وإساءة استخدامها. ليست المشكلة حب الوطن، أو الولاء للهوية، بل التعصب المتزمت لرؤية محددة للوطنية، وعدم التسامح مع انتقاد الذات، والابتعاد عن التفكير المتروي، والانغلاق أمام التفسير البديل والمتنوع. لقد أشار الدكتور صمويل جونسون (1784.1709) الكاتب والناقد ومؤلف المعاجم البريطاني الشهير، عشية الثورة الأمريكية عام 1775، إلى أن الوطنية هي آخر ملجأ للوغد. أما المهرطق الأمريكي امبروس بيرس (1842 ـ1914؟)، فقد توسل من أجل الاختلاف ـ لأنه الأول والأهم كما قال. هنالك أيضا، كما لاحظت الروائية البريطانية اليزابيث غاسيكل (1810 ـ 1865)، ذلك النوع من الوطنية المؤسس على كراهية كل الأمم الأخرى واعتبارها إما نماذج فاشلة لما يجب أن تكون عليه

الأمة، أو أمثلة دونية وعاجزة وفي حاجة ماسة للتعليم العلاجي المخصص للمعاقين. وكلما كانت الوطنية التي تسيطر على المخيال الشعبي والخطاب العام أقل خضوعا للنقد المنطقي، كلما زادت قدرة الروح الأمريكية على جعل الناس يشعرون بالوحدة، والانعزال، والخصوصية، والاختلاف. وكلما تشبثت بالمرآة المشوهة التي تحرف صورتها وصورة العالم الخارجي، كلما أصبحت أقل قدرة على فهمه، وبدا لها مليئا بالعناصر المعادية العاجزة عن الإفصاح عن ذاتها، عالما مكونا من البرابرة. و"البربري" تعبير ظهر بين الإغريق القدماء. فقد كانت اللغات الأجنبية تبدو بالنسبة لآذانهم مجرد "بربرة". ثم أصبحت اللفظة تشير إلى كل من لا يقدر على التحدث باليونانية، وتضمن المعنى الدلالي للبربرية علة أو نقصا أو عيبا في المنطق العقلي السليم. هذه الاستعارة المجازية لا تبتعد كثيرا عن إدراك العالم لأمريكا - وله ما يبرر ذلك - وتصوره لكيفية رؤيتها لذاتها: إذ تعتبر نفسها موقعا وموئلا لكل ما هو منطقي وصالح ومفيد، في حين تظن أن كل الآخرين عبارة عن برابرة لا يمكن فهمهم ولن يعرفوا صالحهم.

ما يراه العالم في تصرفات أمريكا داخليا وخارجيا على درجة من التناقض والتعارض مع رؤيتها الأسطورية المثالية بحيث

تستحث طرح العديد من الأسئلة التي يتعذر اجتنابها. لماذا لا تشوش النقائص والمثالب المتأصلة في الأمة، والإخفاقات في تحقيق مبادئها المثالية أو الالتزام بها فعليا، على ثقة الأمريكيين بأنفسهم؟ لماذا يلجأ الخطاب السياسي، عند مواجهة أي قضية أو أزمة، إلى توكيد نماذج الكمال لفكرة أمريكا باعتبارها حقائق راسخة غير قابلة للتغيير؟ بدلا من التشبث بالحريات التي تزعم أمتهم أن الأمريكيين ورثتها، تبدو لغة الخطاب السياسي أكثر ضيقا مع مزيد من الإشارات المرجعية الملحة إلى الأسطورة الوطنية المتزمتة وروحها وحالتها المزاجية.

القصة الأمريكية أسطورة بالمعنى الدقيق للكلمة. الأساطير عبارة عن قصص وحكايا تتعلق بأصول أو تخلّق ظاهرة معينة هي في جوهرها اجتماعية وليست فردية. والرؤية الأسطورية الأمريكية مجموعة من البواعث والحوافز المترابطة: بدءا من ترويض البراري والاستيطان في مناطق الغرب الأمريكي، والكفاح من أجل الحرية، مرورا بالفردانية الصارمة، والاعتماد على الذات بالنسبة لأولئك الرواد الذين أوجدوا الأمة، وانتهاء بتأسيس الاتحاد الكامل، وضمان الحفاظ على الحقائق البدهية، وتحقيق "القدر/ الواجب المحتوم" (ساد اعتقاد في القرن التاسع عشر بأن توسع الولايات المتحدة في

الأمريكيتين واجب مبرر ومحتوم). يجسد التراث السردي الأمريكي هذه الرؤية الأسطورية على شكل حكايا أخلاقية تكون فيها فكرة أمريكا نقية ومثالية إلى حد الكمال، والذات الأمريكية بريئة وصالحة وخيرة. في فيلم فرانك كابرا "السيد سميث يذهب إلى واشنطن" (1939)، ينتصر الاعتقاد البريء بنقاء وصفاء وطهارة الديمقراطية الأمريكية على السياسيين الفاسدين والصحفيين المتشككين العيَّابين، بفضل الطيبة والصلاح المتأصلين في أعماق السيد سميث.

هنالك تناقض، ضمن هذا التراث الأسطوري، خلقته قراءة انتقائية للتاريخ. هذه المختارات المنتقاة من التاريخ اعتبرت بمثابة الحقائق الوحيدة. وكلما أخضعت هذه الحقائق لمزيد من المساءلة، تضاعف العناد والتصميم على الدفاع عن الأسطورة، وتفاقم استقطاب المجتمع. يمكننا رؤية ذلك في الجدل الأمريكي حول التعددية الثقافية، أكثر الميادين إثارة للخلاف، حيث تركز عليها التعليم - خصوصا تطور ذلك التعليم المؤسس على أهمية الثقافة الإفريقية. لقد حاول الأمريكيون السود إثبات أن تلقيهم التعليم ضمن إطار مجموعة المبادئ والقواعد الغربية لم يؤد فقط إلى تأبيد إقصائهم الاجتماعي، بل إلى استمرارية القصة الخيالية التي تشير إلى أن السود قد لعبوا دورا هامشيا

في نمو أمريكا. وفي سبيل تطور إحساس جديد ومتمكن بقيمة الذات، هنالك حاجة لمناهج مدرسية جديدة تعكس تجربة المواطنين السود، وتدمج فيها التعريف بالجذور الإفريقية والإنجاز الثقافي الإفريقي. أما المعارضون فيقدمون الحجة على أن ذلك يضعف الحضارة الحقيقية، نظرا لأن مجموعة المبادئ والقواعد الغربية تمثل أعظم مستودع للمنجزات الفكرية والفنية للإنسانية وأكثرها استدامة واستمرارية، ولذلك ينبغي أن تكون إجبارية في الدراسة. فالتعليم المرتكز على تفوق الثقافة الإفريقية، كما يحتج نقّاده، يقوم مقام دراسة الآثار والأفكار الثقافية الدونية التي لم تسهم في نهوض الحضارة، علاوة على أنه يقدم فكرة أسطورية ورومانسية عن أفريقيا.

الجدل حول التعددية الثقافية داخل أمريكا، باعتبارها أمة من المهاجرين، يتجه مباشرة إلى معنى الهوية، إلى طبيعة القالب الذي خلق الصفة أو الشخصية التي تدعى "أمريكي". في السياق العالمي، يتصل الجدل بالسؤال المتعلق بنوع العلاقات المحتملة في عالم تشكل طيلة قرون عديدة من خلال الهيمنة الغربية. إذ لم تكتف الحضارة الغربية بتشييد المستعمرات والإمبراطوريات الأرضية، بل بنت إمبراطورية فكرية تمثل فيها وحدها المعنى

الحقيقي والاستخدام الأمثل للعقل، والموضوعية، والالتزام بالمفاهيم والمبادئ العالمية الجامعة، وتلك إجراءات روتينية في قواعدها وأنظمتها المعرفية. لكل ذلك، عرفت الحضارة الغربية دائما حقيقة الحضارات الأخرى وواقعها، وتاريخها، وأفكارها، بشكل أفضل مما تعرفه هي عن نفسها. إذن، فالمجتمعات الأخرى وتمظهراتها الثقافية هي - بالتعريف - ليست عالمية ولا جامعة، كما أن جعلها أساس التعليم الحديث يعني الانحراف عن سيرورة التقدم الإنساني والحط من قيمة التعليم.

بالنسبة لأمريكا، يبدو جدل التعددية الثقافية مثل صراع من أجل البقاء، وهذا هو لب المشكلة. فإذا لم تكن الحرية والتحرر والعدالة خالصة ونقية وكاملة وصالحة عند التطبيق - في التاريخ أو في المجتمع المعاصر - فإن أمريكا لا تتصف لا بالبراءة ولا الفضيلة، لا بالفرادة والتميز ولا بالاختلاف والتباين، وليست آخر الآمال الباقية، بل مجرد مجتمع كباقي المجتمعات، مسعى إنساني مثقل بالعيوب والمثالب والنواقص عليه أن يواجه تحدي التغيير ويقبله.

بدأت حروب الولايات المتحدة الثقافية، أو التفرع الحاد بين وجهتي النظر الليبرالية والمحافظة، مع انبثاق الثقافة المضادة المنشقة خلال الاضطراب العظيم الذي سببته حرب فيتنام في

أواخر الستينيات. الروح الليبرالية والثقافية المضادة هي التي حفزت أيضا جدل التعددية الثقافية، وانشغلت الحركتان كلتاهما بقضية المسموح به فيما يتعلق بالاعتقاد بما هو صادق وصحيح في الأصول والجذور والنظام الاجتماعي لأمريكا. وكانت معركة مريرة خلقت صدوعا غائرة في السياسة، والبيئة الأكاديمية، والجدال الشعبي. ثم تحولت بصورة متزايدة إلى معركة بين التعصب المتزمت والهرطقة المنشقة المطالبة بتدعيم الحقوق المدنية، لكن ركز كل من الطرفين على كسب الأنصار والمؤيدين بدلا من التفكير المتروي بالأسئلة المطروحة أو معاينة الاحتمالات البديلة عبر النقد الذاتي. ما الذي كان سينتج عن تفحص المشاعر والأفكار والدوافع الذاتية عبر النقد الذاتي البناء؟ لربما كان سيبين ويشرح ويفسر رأي العالم الخارجي بأمريكا، ولماذا يعتبر مزاعم أمريكا عن نفسها متناقضة وغير مقنعة، ولماذا يرى أمريكا بؤرة المشكلات العالمية بين الغرب وباقي دول العالم، ولماذا يؤجج التصلب الأمريكي مشاعر القلق والانزعاج، والإحباط العداء في العالم أجمع. باختصار، ربما فتح سؤال لماذا يكره العالم أمريكا أمام الجدل والحوار، بدلا من تحريض خطاب "الإقناع بالقنابل"، وهي العبارة العامية العتيقة التي استخدمها الجنود الأمريكيون للإشارة إلى القصف الشامل

الواسع النطاق ("قصف السجادة") لفيتنام، والتي سوف نستقصي أهميتها الدلالية في الفصل التالي.

من منظور العالم الثالث، ليست أصول وجذور أمريكا أسطورية على الإطلاق. فهي تبدأ بالعقيدة التي ترعرع في حضنها الاستعمار. وإنشاء أمريكا ليس سوى فرع من القصة المألوفة لنهوض القوة الأوروبية التي انطلقت مع التوسع الاستعماري الأوروبي. لذلك، دعونا نأخذ انعطافة وجيزة نحو جذور الاستعمار الأوروبي لنرى كيف أصبحت القاعدة المؤسسة للإمبريالية الأمريكية المفرطة القوة.

كان التوسع الأوروبي مشروعا واعيا مقصودا، تشكل أسه المنطقي ومسوغه الأخلاقي بواسطة تاريخ، وأفكار، وهوية النصرانية الغربية. تبدى الأس والمسوغ بوضوح وصراحة في سلسلة من الأوامر والتفويضات الرسمية البابوية التي أجازت ما دعي بـ"الرحلات الاستكشافية". وهذا يظهر أن المقدمة المنطقية للنزعة التوسعية الغربية كانت أيديولوجية تصادمية انطلقت من شعورها الذاتي بالتفوق، تفوق حقها الخاص، تفوق الذات على "الآخر"، المختلف، الدوني، المنحط. هذه الأوامر والتفويضات تبرر حق أوروبا بمهاجمة أراضي وممتلكات الشعوب الأخرى والاستيلاء عليها وامتلاكها، مع أن أفرادها يرون، من وجهة

نظرهم، أن لهم الحق الكامل بالاعتقاد بأنهم الملاك الحقيقيون لأراضيهم وممتلكاتهم ومصائرهم. وكان لابد أن تؤدي هذه العملية، ما إن بدأت، إلى الاستعمار بكل صوره وأقنعته وأشكاله، وهي مستمرة مع إمبريالية أمريكا المفرطة القوة في يومنا هذا.

الأمر البابوي المعروف باسم " Dum Diversas"، هو الأول في سلسلة من الأوامر البابوية، وكان موجها إلى ملك البرتغال عام 1453. ومن اللافت أن لغته وأفكاره قد استخدمت من قبل كافة الأمم الأوروبية التي رعت المشاريع الاستعمارية التوسعية. الأمر البابوي فوض ملك البرتغال بمهاجمة "المسلمين" وقهرهم وإخضاعهم، إضافة إلى غيرهم من الوثنيين والكفار المعادين للمسيح؛ والاستيلاء على بضائعهم وأراضيهم وسبيهم عبيدا إلى الأبد؛ ونقل ملكية أراضيهم وممتلكاتهم إلى ملك البرتغال وخلفائه. تفويضات مشابهة منحت إلى ملك وملكة إسبانيا فيردناند وايزابيل قبل أن ينطلق كولمبوس في رحلته. نفس اللغة ظهرت في التفويض الذي منحه ملك إنكلترا هنري السابع (حكم بين عامي 1485 ـ 1509) إلى جون كابوت قبل أن ينطلق في رحلاته الاستكشافية في أمريكا الشمالية، والذي شكل أساس كل المطالب الإنكليزية اللاحقة بالأراضي

والأملاك فيما سيعرف بعدئذ بالولايات المتحدة. منح آل كابوت الحق باحتلال/ ورفع رايات وشارات الملك "في أية بلدة، أو مدينة، أو قلعة، أو جزيرة، أو بر، تم استكشافها بواسطتهم"، في أية بقعة في "البحر الشرقي أو الغربي أو الشمالي" يملكها "الوثنيون والكفار في أي جزء من العالم، الذي لم يكن معروفا من قبل لدى كافة المسيحيين". التفويض زودهم بالصلاحية "لفتح، واحتلال، وامتلاك" مثل هذه الأماكن كلها، بشرط أن يدفعوا للملك "خمس المكاسب المالية برمتها" في كل رحلة.

لم تكن الجهود المنظمة من قبل الأمم الأوربية لـ"اكتشاف" أراض جديدة تستهدف إشباع الفضول العلمي. بل كانت استجابة براغماتية لمشكلة قديمة، المشكلة الجيوسياسية التي صاغت الهوية الأوروبية، وطورت نوعا من الإحساس الأوروبي بحمل الرسالة، وطرحت معضلة اقتصادية أمام أوروبا منذ القرن الثامن. وحين قدم كولمبوس خطته الجديدة للوصول إلى الشرق، إلى أرض "الكاثي" (كما كانت تعرف الصين في القرون الوسطى)، عبر الإبحار غربا، كان يأمل، في داخلته، بفتح جبهة جديدة من خلال حملة صليبية سابعة، وجعل استعادة بيت المقدس أمرا ممكنا، كما ذكر مرارا وتكرارا في كتاباته. أما ما عرف باسم "عصر الاستكشاف"، فكان مناورة

استراتيجية ضمن إطار تنافس القوة المستمر بين المسيحية والإسلام. ولهذا الصراع كثير من الملامح المتماثلة مع الحرب الباردة، حيث لفق الأفكار والمواقف التي أصبحت عناصر جوهرانية في تكوين أمريكا.

على شاكلة الحرب الباردة، كان صراع القوة بين المسيحية والإسلام عقائديا. وفي الحقيقة لم يكن محتوما، ولا مؤسسا على شيء متأصل في الدين المسيحي، أو الإسلامي، بحد ذاته. بل كان نتاجا للأفكار ووجهة النظر المسيحية التأويلية المعتمدة على فهم محدد للدين في مرحلة محددة من التاريخ. كانت هذه "الحرب الساخنة" العقائدية طويلة، ودموية، ووحشية، وولدت شعوذات الدعاية المغرضة لدعم وتأييد الحملات العسكرية المعروفة باسم الحملات الصليبية و"حرب استرداد الأندلس" (Reconquista). كما شكل بالنسبة لأوروبا فهما للعالم تجذر في العداء المستدام المتكئ على الأيديولوجيا. لقد أنتجت كافة الأنظمة الأيديولوجية فارقا مميزا بين "نحن" و"هم"، مثلما كانت الأسس الداعمة للحرب الباردة في القرن العشرين تعريفا إيضاحيا للفوارق بين أساليب الحياة، والمبادئ، والقيم، والنظام الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي. لم تكن الأمور مختلفة في الحقبة المبكرة من تنافس القوة. في "الحرب

الساخنة"، جرى النظر إلى كل تلك الفوارق باعتبارها نتائج طبيعية للاختلاف في الدين.

الحدث المؤسس لهذه النظرة الجيوسياسية كان معركة تورز (بلاط الشهداء) في فرنسا عام 732م، حيث أوقف شارل مارتيل (688؟.741) زحف المسلمين (بقيادة عبد الرحمن الغافقي أمير قرطبة) وتوسعهم في أوروبا. كان النصر أوروبيًا، فالجيش الذي واجه المسلمين وصف بأنه من "الأوروبيين" في السجلات والمحفوظات المعاصرة. ولهذا، تشكل المجتمع الأوروبي القروسطي ضمن إطار مقاومة ومعارضة الحضارة الإسلامية. فقد أقامت المسيحية في القرون الوسطى مجتمعا شموليا - بل بالأحرى استبداديا كليانيا. وأول طقوس الكنيسة، التعميد، هو ما يجعل الطفل إنسانا حقيقيا وعضوا في المجتمع المدني، ومواطنا. المعتقد المتزمت هو الذي يعرّف المواطن الصالح. أما تخوم المواطنية فكانت محددة بالهرطقة، والجريمة/الخطيئة بحق الدين، التي تحقق بها الكنيسة لكن يعاقب عليها الحكام الدنيويون. الإيمان المسيحي المتزمت هو الشرط المسبق الضروري لتكوين المجتمع بكافة أبعاده القانونية والسياسية والاجتماعية الممكنة.

عاشت أوروبا وتطورت ضمن إسار ذهان الحرب، وتهوس الوعي بعدو متفوق لا يضاهى. فقد واجهت أوروبا الضعيفة والمقسمة عدوا أكثر تقدما على كافة الصعد الفكرية، والثقافية، والاقتصادية. ومثلت اندفاعة الإمبراطورية الإسلامية المفاجئة أمرا يتعذر تفسيره بالنسبة لأوروبا. فمن منظور المسيحية، ما هي الحاجة لدين جديد وقد مات "ابن" الله تكفيرا عن خطايا البشر؟ تراث العداء العنيف للإسلام بدأ مع يوحنا الدمشقي (ت. 748م) الذي صوره كدين زائف، وحشي، شيطاني، فاسق، خليع، متعصب، مناقض بشكل يتعذر تغييره لكافة معايير وقواعد الحياة المسيحية. في الجوهر، رفض يوحنا الدمشقي الإسلام باعتباره "دينا مزيفا اخترع منذ البداية لتسهيل العدوانية والشهوة"(2)، وذلك عبر تقديمه كشيء لا يمكن أن يكون، بل يسهل في الحقيقة معرفة استحالة أن يكون، بهذه الصورة. في كتابه "الأبطال والمسلمون"، وصف نورمان دانييل (كما رأينا في الفصل الثاني) هذا الموقف بـ"المعرفة الجاهلة"، الذي استخدم استراتيجيا للأغراض الدعائية. كان للنماذج المنمطة الفظة التي اخترعها يوحنا الدمشقي تأثير نافذ على المعرفة والمنتجات الثقافية الغربية. "فردات الفعل المسيحية المبكرة على الإسلام ظلت مماثلة لتلك التي ظهرت منذ عهد قريب. وللتراث استمرارية وما زال حيا وفاعلا"، كما يقول

دانييل[3]. سيعرف هذا التراث باسم "الاستشراق"، وأصبح يُشخص اليوم باعتباره "إسلاموفوبيا" (خوف رهابي من الإسلام): "كره وخوف يفتقدان المنطق العقلاني من الإسلام والمسلمين"[4]. ويقدم دانييل الحجة على أن رواية سلمان رشدي "آيات شيطانية" (1988) تجسد مثالا معاصرا على هذا التراث الحي. "أسلوب العصر تغير، لكن المواضيع متواترة ومتكررة وباقية"، حسبما يقول[5].

أصبحت حياة العالم الإسلامي معروفة لأوروبا بأنها حياة وفرة وغنى ونماء، تصقلها التقانة المتقدمة، والمعرفة العلمية، والمنجزات الأدبية والفلسفية، وتعتبر نبعا للموارد الثرة التي تتجاوز كل ما هو متاح في الغرب. وفي سبيل الحصول على هذه البضائع والسلع والأساليب التقنية، اعتمدت أوروبا على التجارة مع عدوها اللدود. أما كفة ميزان التجارة القروسطية فكانت تميل لصالح العالم الإسلامي بدرجة هائلة، وأضاف الحصول على الذهب لدفع ثمن البضائع مزيدا من التعقيد إلى المشكلة. كان الذهب يأتي من غرب أفريقيا عبر طرق التجارة التي تخترق الصحراء إلى المغرب العربي الإسلامي (المنطقة التي تضم حاليا المغرب والجزائر وتونس)، ومن هناك إلى أوروبا. ثم يوزع في مختلف أرجائها قبل أن يتدفق مرة أخرى من خلال التجارة مع

الموانئ الإسلامية في الشرق الأوسط، (المنطقة الممتدة على طول الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، من تركيا إلى مصر)، حيث تنتهي عندها الطرق التجارية التي يسيطر عليها المسلمون وتمتد إلى جزر الهند الشرقية ("جزر التوابل") والصين في الشرق الأقصى.

بدأت الحملات الصليبية في السابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1095م، حين ألقى البابا اوربان الثاني (1035؟ - 1099) عظة في كليرمون بفرنسا. في كلتا الروايتين الباقيتين عن هذه العظة، يصف البابا العدو بالتعابير الأيديولوجية المألوفة: "عرق محتقر ومنحط، يعبد الشياطين"؛ "جنس ملعون"؛ "أمم نجسة". العدو كان، كما افترض، يهاجم المسيحيين في الشرق الأوسط، ويطردهم من أراضيهم، ويدنس ويدمر أماكن العبادة المسيحية، ويستولي على الكنائس لإقامة شعائر ديانته. وتبعا لنسخة روبرت الراهب، عرض البابا الحملة الصليبية باعتبارها مهمة خاصة للفرانكيين (الفرنجة)، أو الشعب الفرنسي، وكذلك بوصفها فرصة لهذا الشعب بالتحديد للنجاة من قيود الأرض التي "ضاقت كثيرا على العدد الكبير من سكانكم". فأوروبا، كما زعم اوربان، قد فرقتها الصراعات الداخلية، ومن الأفضل أن ينأى الأوروبيون عن هذه المنافسة الأثيمة لينجزوا

مهمتهم الصحيحة المتمثلة في مهاجمة الوثنيين والكفار. وستكون الحملة الصليبية "حربا مقدسة" بمعنيين اثنين: ستكون لصالح تقدم المجتمع المسيحي؛ وستكون مشروعا حربيا يكفر عن خطايا وذنوب كل من يشارك فيه. أولئك الذين حملوا الصليب، وأصبحوا صليبيين، سوف يسيرون على الدرب الموصل لجنة الخلد. هذا الصراع كان متجذرا في التاريخ، كان "حربا يجب أن تشن منذ زمن طويل".

لم تكن الحملات الصليبية خمسة أو ستة أحداث منفصلة ـ لقد مثلت حقبة، جملة من الأفكار، سياقا شكل وصاغ خمسة قرون من التاريخ الأوروبي. كانت نظرة للعالم تتجاوز السياسة والقانون، ؛ وجدت التعبير المناسب في كافة المنتجات الثقافية للحضارة، وشكلت المثل الصليبية التراث القصصي الذي يمكن العثور عليه في الأدب الشعبي ضمن كل اللغات الأوروبية: الحكايا الرومانسية لشهامة الفرسان الذين "يفعلون ما ينبغي على الإنسان فعله" (على حد تعبير جون واين). لم تكن الحملات الصليبية مجرد حملات عسكرية خارجية بالنسبة لأوروبا ـ لكن جرى أيضا "تذويتها" (جعلها جزءا من الذات) باعتبارها نظرة ورؤية للعالم. علاوة على ذلك، خاض الطرفان الصراع ضمن مناطق نعتبرها الآن أوروبية. كانت إسبانيا

والبرتغال مناطق بديلة للحملات الصليبية، كحال أوروبا الشرقية. وحين استطاع شارل مارتل تغيير مجرى الأمور رأسا على عقب، كانت معظم مناطق شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال حاليا) جزءا من الإمبراطورية الإسلامية. وغدت الممالك الإسلامية في الأندلس بمثابة قناة رئيسية عبرت من خلالها معارف وتقانة وموارد الحضارة الإسلامية إلى أوروبا - بدءا بالفلسفة والاكتشافات العلمية، مرورا بصناعة الورق والطواحين الهوائية، وانتهاء بالسكر والتوابل. وإذا كانت الأراضي والمناطق الإسلامية تحدد تخوم أوروبا، فإن إسبانيا هي الحدود. الحدود الإسبانية كانت بمثابة "الغرب الضاري" (الأمريكي) آنئذ، مناطق اجتذبت المرتزقة والفرسان الذين قدموا من كافة أنحاء أوروبا. وكان ذلك، كما أشار تيري جونز، جزءا من الهجاء الانتقادي في عمل جفري تشوسر (1350؟ -1400) الشهير "حكايا كانتربري" (بدأ كتابتها عام 1387). فمن بين جماعة الحجاج التي وصفها تشوسر هنالك "فارس مثالي جدا"، لكن قائمة مآثره البطولية تشمل بعض الأفعال العنيفة والشائنة في إسبانيا وكذلك على الحدود الشرقية. أما هدف العنف فكان غنم مناطق من العدو الكافر، أراض سوف تجعل آمنة بواسطة المستوطنين الجدد الذين سيروضون ما كان بريا جامحا يقسم ما بين الحضارة ونقيضها.

حددت المسيحية القروسطية هوية أوروبا، وأنتجت بذلك تعريفا واضحا لـ"الآخر"، من هو وماذا يكون: إنه اللامسيحي، الذي لم يتعمد. لكن لم تكن كافة الشعوب الأخرى متماثلة. القديس توما الإكويني حدد فئتين أساسيتين: الجهلة الذين يمكن قهرهم، والجهلة الذين لا يمكن قهرهم. الفئة الأولى تضم "الآخرين" الذين لديهم معرفة بالمسيحية لكنهم رفضوا عامدين متعمدين اعتناقها. وكما يتضح بجلاء من القانون الكنسي، فإن هذه المجموعة تتألف من اليهود والمسلمين. اليهود هم "الآخرون" الذين تواجدوا داخل تخوم المجتمع المسيحي، وتعرضوا للتمييز والتفرقة والاضطهاد نتيجة كونهم يمثلون "الآخر" المختلف. أما المسلمون فكانوا "الآخر" الخارجي، ولم يكن يتوقع منهم أن يتواجدوا داخل المجتمع الأوروبي. الجهلة الذين لا يمكن قهرهم هم البرابرة، ويشمل هؤلاء المتوحشين- الذين يمكن استرقاقهم (مؤسسة الرق ظلت باقية من العهد الروماني ولم تختف تماما من أوروبا القروسطية. والكلمة اللاتينية (Slave /عبد، رقيق) أتت من كلمة /Slav/ أي الشعوب السلافية في شرق أوروبا). أملت أوروبا أن تجد حلفاء من بين الفئة الثانية [الجهلة الذين لا يمكن إخضاعهم] في حربها ضد الإسلام، إن تمكنت من العثور على طريق يلتف حول أراضي المسلمين ويطوقها.

اكتشاف طريق يلتف حول أراضي المسلمين سوف يتيح أيضا حرية الوصول مباشرة إلى "جزر الهند" والحصول منها بواسطة التجارة على السلع التي أصبحت من المواد الأساسية في الحياة الأوروبية. كما سيضعف قبضة الحضارة الإسلامية الاقتصادية الممسكة بخناق أوروبا. وحين فشل الصليبيون في تحقيق هدفهم وتعثر مشروعهم الهادف لضمان وجود أوروبي في الشرق الأوسط، بدأت مغامرة الاستكشافات بشكل جدي. ففي عام 1492 ، وبعد أيام قليلة من اكتمال استرداد الأندلس وذلك مع سقوط أخر معاقل المسلمين في غرناطة، استدعى فرديناند وايزابيلا، أعظم الملوك الكاثوليك (دعيت دولتهما "مملكة الملوك الكاثوليك")، كريستوفر كولمبوس ومنحاه أخيرا الموافقة على اقتراحه الجديد بمتابعة الحملات الصليبية ضد الكفار، وذلك بالوصول إلى الشرق عن طريق الإبحار غربا عبر المحيط الأطلسي.

انطلق كولمبوس برحلته متسلحا بالأفكار والمعارف الأوروبية التقليدية. أما اقتراحه الإبحار غربا فقد استمد إلهامه من غلطة مطبعية تكررت من جديد، أولا وهي الخطأ في حساب قطر الأرض من قبل العالم الإغريقي بطليموس. سافر كولمبوس حاملا في جعبته مجموعة من الكتب الحاوية على

مخزون الأفكار الأوروبية المعاصرة حول العالم وسكانه؛ ونسب إليه الفضل باكتشاف "عالم جديد" بالرغم من إصراره على أنه وصل فعلا إلى الشرق الأقصى القديم. ومع ذلك، فإن الأفكار العتيقة هي التي استخدمتها أوروبا لفهم هذا الحدث الجديد. والأوروبيون الذين استوطنوا القارة المكتشفة حديثا حملوا معهم البواعث والحوافز، وطرائق التفكير، والمدركات عن الذات للمسيحية الغربية. في هذا الموقع المكاني الجديد، بدأت الأفكار القديمة وأساليب التفكير والسلوك المعتادة مرحلة جديدة من الهيمنة الاستعمارية

أمكن للأوروبيين، بعد كولمبوس، الزعم بأنهم تقدموا إلى الأمام متجاوزين معارف اليونان والرومان القدماء، وآباء المسيحية، علاوة على جملة معارف الحضارات الإسلامية والهندوسية والصينية. أصر القدماء وآباء اللاهوت على أن "المناطق الواقعة على الطرف الآخر من الكرة الأرضية" لا يمكن أن يسكنها البشر، وأن الحياة الإنسانية مستحيلة في المناطق الحارة من الأرض. لكن الأوروبيين المعاصرين، في عصر الاكتشافات، أثبتوا خطأ ذلك. فالمعرفة العملية، أي المعلومات التي جمعها البحارة والرحالة، لعبت دورا رئيسا في تشكيل وجهة النظر العلمية الجديدة التي كانت تبزغ في أوروبا، وحين

استخدمت لاستقصاء وتفحص العالم من جديد، أمكن تقديم صورة مختلفة عن الشرق. فتقارير الرحالة، والتجار، والبعثات التبشيرية ذكرت بانتظام أن الشرق كان في عصر انحطاط وتفسخ وضمور وردة رجعية إلى الخرافات والخوف اللاعقلاني من المجهول، بينما كان الأوروبيون يتقدمون ويطورون معارفهم. ولربما كان الشرق أعظم ثقافة وأكثر مهارة علمية وتقانية، لكن هذا أصبح شيئا من الماضي الغابر. الشرق في حالة جمود أبدية، وتوقف تطوره، أما السبب الرئيس لانحطاطه وتفسخه فهو التزامه المستمر بالدين الخطأ. إن مشعل الحضارة، والعقل، والمعرفة العلمية، وموئل الابتكار الإبداعي الخلاق، رسالة المسيحية، قد انتقل إلى الغرب. تحمله أيد جديدة، أيدي الأمم الأوروبية التي تدفع وتمد حدود أوروبا في العالم على الدوام.

هناك جيل واحد امتد من عام 1492، حين نزل كولمبوس على شاطئ "هيسبانيولا" (إحدى جزر الهند الغربية المقسمة الآن بين هايتي وجمهورية الدومينيكان)، إلى عام 1529، حين أكمل فيردناند ماجلان أول رحلة بحرية حول الأرض، شكل معلما بارزا وهاما في تاريخ أوروبا. لم يقتصر الأمر على إثبات حقيقة أن كل الكتب التعليمية القديمة ناقصة تبعا للاكتشافات الجديدة، بل أعيدت صياغة طريقة تفكير

الأوروبيين بهذه المعلومات، وما تعنيه بالنسبة لأصول ونشأة العالم والغاية منه. بخلال جيل واحد، حدثت طفرتان عظيمتان على صعيد الكم. فمع توسع المعارف عن العالم الدنيوي، خضع العالم الروحي لعملية "إصلاح ديني". الدين الجديد الناتج عن "الإصلاح" وفر سلطة جديدة للفرد كي يبحث ويدرس ويتقصى كتاب الله المكتوب ("الإنجيل") وكتاب الله المنظور ("الطبيعة")، متسلحا بالعقل الإنساني والمنطق البشري. الإصلاح الديني البروتستانتي صدَّع بنى السلطة المرجعية القديمة وأوجد أخرى جديدة. وغدا الضمير الإنساني الفردي أساس نوع جديد من الميثاق المدني، ألهمت فكرته قرونا من المساعي الدؤوبة لتأسيس وترسيخ الحريات المدنية الفردية. بدأ الإصلاح الديني كحركة لمغالبة فساد وانتهاكات وأضاليل وأخطاء الدين الرسمي الخاضع لتأويل الكنيسة الكاثوليكية. فانفتح عالم جديد، أرض موعودة من الالتزام الإيماني، والعلاقة الصحيحة مع الله، أمام أولئك الذين قاموا بالرحلة الروحية والفكرية إلى منطقة اللاهوت القويم. المؤمنون الملتزمون بالطوائف والمذاهب الدينية الجديدة، وقد تسلحوا بمقاربتهم الجديدة للكتاب المقدس، ضمن إطار فكرة "جسد المسيح" بعد إصلاحها، أرادوا بناء موئل مثالي للأرواح التي خلفها المسيح في مجتمعاتهم المدنية على الأرض. الحجاج الذي غامروا بالسفر إلى العالم الجديد اعتبروا

أنفسهم فعلا بمثابة عبرانيين جدد يسعون إلى الأرض الموعودة، أرض كنعان.

انطلق الحجاج لتأسيس مجتمع جديد وبذهنهم هذا الهدف السامي. كتب جون رولف (1585 ـ 1622) يصف في عام 1617 "العمل الحماسي" لتأسيس مستوطنة فيرجينيا: "لا داعي للخوف. كل ما علينا فعله أن نشيدها، كجماعة استثنائية، أشارت إليها واختارتها إصبع الله كي نمتلكها"(6). حين أبحر جون وينثروب إلى أمريكا عام 1630، كتب يقول: "يجب أن نعتبر بأننا سنكون 'نارا على علم'، وأعين الناس جميعا مركزة علينا"(7). لقد حدد كل من رولف، أحد مؤسسي صناعة التبغ في مستعمرة فيرجينيا، ووينثروب، الذي أصبح أول حاكم لمستعمرة ماساتشوستس، الصفات المقبولة والسائدة لأمريكا من نقاء، وحق مقدر، واستقامة أخلاقية، وبراءة. أما حياته المهنية فاحتوت تناقضات أقلقت العديد من المراقبين لأمريكا. وكما يقول جيمي دورهام الكاتب الأمريكي (الهندي الأصل):

> يمكن حتى الآن أن نقرأ افتتاحية صحيفة يومية عن "فقد أمريكا لذاتها"، في هذه المرحلة أو تلك، وحول وقت ما في الماضي حين كانت أمريكا صالحة وطيبة وخيرة فعلا.

لقد بدأ الاعتقاد بالتفوق الأخلاقي للذات والإصرار على البراءة والطهارة، مع بدء الولايات المتحدة بالغزو والقتل[8].

في رأي دورهام، شعرت أمريكا منذ البداية بحنين مرضي إلى ذاتها نتيجة الإثم الفعلي. فالولايات المتحدة، في اعتقاده، كانت أول مستعمرة استيطانية تأسست "ضد"، وعبر "إنكار"، حقوق السكان الأصليين. وهكذا "طورت رواية كانت أكثر اكتمالا، وأشد إرضاء.. تلك الرواية ولدت سلوكا ثقافيا وسياسيا جديدا كان له التأثير الرئيس النافذ في العالم الحديث"[9].

"الأسطورة الكبرى"، كما يدعوها بيتر ماثيسون، التي استخدمت لتبرير وتأبيد الاستيلاء على أمريكا، هي ما "اكتشف" أنه أراض شاسعة من البراري المقفرة. "العالم الجديد: نقي، عذري، لم تغيره يد البشر، ونتيجة للاعتقاد بالطبيعة البكر للأرض المكتشفة هنا، فإن كل الثقافة على هذه القارة، اعتبرت آنئذ، وما زالت تعتبر من قبل الكثيرين الآن، أنها منقولة من حضارات أوروبا 'المتقدمة'، حضارات 'العالم القديم'"[10]. كتب أوائل المستوطنين يقولون بأنهم وجدوا "جنة عدن" جديدة، أرض كنعان، فردوسا أرضيا. أمكنهم هنا البدء بتجارب جديدة لاختبار المجتمع، وإلغاء وحل المشكلات،

وتجاوز فساد وعيوب ونواقص وإخفاقات "العالم القديم". الحرية التي خصَّ بها المستوطنون أنفسهم، اتصلت مباشرة بالحرية التي أنكروها على السكان الأصليين لأرض مأهولة، ومستوطنة ومزروعة، كانت منظرا مشهديا ناتجا عن تفاعل الإنسان والطبيعة.

الإنكار الذي يشير إليه دورهام يبدأ مع السؤال المتعلق بما إذا كان السكان المحليون في العالم الجديد كائنات بشرية لها أرواح أم لا. وظل حاضرا في تقاليد التوصيفات والروايات المبكرة عن سكان أمريكا الأصليين، التي بقيت سلبية باستمرار. واللازمة المتكررة كانت "ليس لديهم.."، بغض النظر هل كان الموضوع يدور حول مفهوم الممتلكات الشخصية، أو شكل الحكم، أو الدين، أو الزواج. ما "ليس لديهم.." هو الأشكال والأنماط والسلوكيات الاجتماعية الأوروبية. هذه التوصيفات والروايات السلبية تلقفها الفلاسفة في أبراجهم العاجية في أوروبا ووظفوها لتشكيل وصياغة رؤية تراتبية للكينونة الإنسانية الاجتماعية والثقافية التي كانت في مرحلة البناء حين وطأت أقدام الحجاج أرض ما سوف يعرف باسم أمريكا. هنالك فترة حمل طويلة ومراحل متنوعة من عملية "التعريف بالإنكار/السلب/ النفي" لسكان أمريكا الأصليين. لكن ما يتضح بجلاء هو كيفية امتداد وتوسع طرائق التفكير

القديمة والمبتذلة التي تشكلت خلال تنافس القوة في القرون الوسطى بين المسيحية والإسلام، لتشمل تصنيع الأفكار والمواقف والوسائل المطلوبة للتعامل مع سكان أمريكا الأصليين.

إسبانيا، أول قوة استعمارية في العالم الجديد، ناقشت بشكل جدي الوضع الشرعي/القانوني للأهالي المحليين. النقطة التي تركز عليها الجدل هي: هل أهالي أمريكا الأصليين هم من دعاهم الفيلسوف اليوناني أرسطو بـ"العبيد الطبيعيين"، أي ذلك القسم من البشر الذين اختارتهم الطبيعة ليكونوا عبيدا في خدمة أولئك الذين ولدوا من أجل حياة الفضيلة المتحررة من عبء العمل اليدوي. لم تكن السلطة المرجعية للقدماء العامل الوحيد الذي أعطى الاعتبار والاحترام لهذه الفكرة - بل وجدت لها أيضا مسوغا تبريريا في الإشارة التوراتية إلى أبناء حام الذين قدر عليهم أن يكونوا "حطابين وسقاءين". أما أول تطبيق لهذه الفكرة على العالم الجديد فستظهر في كتابات الفيلسوف الاسكتلندي جون ميجر الذي أقام في باريس عام 1510. الفكرة تعرضت للدحض على الفور. "أنا صوت يصرخ في البرية، فلا حياة لمن تنادي"، هذا هو نص الموعظة التي ألقاها انتونيو دي مونتيسنوس عام 1511 في إحدى كنائس هيسبانيولا، حيث نزل كولمبوس لأول مرة. ثم سأل: "هل هؤلاء

الهنود لا ينتمون إلى البشر؟ ألا يملكون نفوسا وأرواحا وعقولا؟ أليس من واجبكم أن تحبوهم كما تحبون أنفسكم؟". أدت هذه الآراء المتناقضة إلى سلسلة من النقاشات والمجادلات العامة في إسبانيا طيلة عقود من السنين، الأمر الذي أدى بدوره إلى صدور مجموعة من التعليمات المتعلقة بمعاملة السكان المحليين، وتعريف وضعهم الشرعي.

لم تكن المجادلات مجرد بحث نزيه وموضوعي عن فهم لجماعات جديدة من الناس. إذ إن فهم أوروبا وتعريفها لسكان أمريكا الأصليين يؤثران في تبرير وتسويغ وضمان مزاعمها بالحق في الاستيلاء على أراضي الإمبراطورية واستملاكها. المجادلات الأولى أنتجت "الشرط الأساسي"، الذي يتطلب قراءة إعلان رسمي على الهنود الحمر، بلغة لا يفهمونها، يخيرهم بين الخضوع للحكم الإسباني والسماح بالتبشير بالدين المسيحي، أو التعرض في حالة الرفض لإجراءات عقابية يحق للأسبان اتخاذها ضدهم واجتياح أراضيهم بالنار وحد السيف: "نبيعكم أو نتخلص منكم حسب مشيئة صاحب السمو؛ وسوف نأخذ من الأتباع العصاة بضائعهم، وننزل بهم كل ما نستطيع من الضرر والأذى والدمار"[(11)].

في خمسينيات القرن السادس عشر، وحين جرت المجادلات الكبرى في بلد الوليد في إسبانيا بين الفيلسوف/اللاهوتي خوان

جين دي سيبولفيدا (1490 ـ 1573)، والراهب الدومنيكاني بارتولومي دي لاس كاساس (1474 ـ 1566)، (المعروف باسم "الرسول" المبعوث إلى الهنود الحمر)، قدمت نظرة بديلة، وفكرة ثابتة عن الإمبراطورية. سكان أمريكا الأصليون ليسوا عبيدا بالطبيعة. فـ"كل البشر سواسية"، كما أصر لاس كاساس، وتابع حجته بالقول: "والسكان المتوحشون في الأرض يمكن مقارنتهم بالتربة غير المزروعة التي تنبت الأعشاب الضارة والأشواك التي لا نفع لها، لكن تكمن فيها فضيلة طبيعية بحيث يجعلها العمل والحرث تغل ثمارا مفيدة وصالحة"[12]. وهذه حجة تدعم اعتبار الهنود الحمر "أطفال الطبيعة"، الذين يجب حمايتهم، وتعليمهم، وهدايتهم، وإدخالهم إلى الحضارة. لكن المشكلة مع هذا الإطار الكولونيالي الشمولي تتمثل في الافتقار إلى أي نوع من الامتحان الذي يمكن اجتيازه بنجاح. ومن الصعب إلى حد ما على الضحية قبول وصاية وبيداغوجيا القتلة والمضطهدين واللصوص الذين نهبوا وسلبوا. لقد كانت فكرة "طفل الطبيعة" أكذوبة مهذبة تأسست على غطرسة عرقية وعنصرية عميقة الجذور، حتى حين أتت من رجل طيب ورع مثل لاس كاساس، الذي رغب فقط بفضح الممارسة الوحشية وعمليات الإبادة الجماعية التي ارتكبها معاصروه.

عمرت فلسفة "طفل الطبيعة" زمنا طويلا في الوعي الأوروبي - وفي الحقيقة مازالت معنا جميعا. فهي تشكل النص الحقيقي لما يلقى على الدول "النامية" من محاضرات توبيخية وتحذيرات متغطرسة تحت مختلف العناوين (من السياسة الاقتصادية وحتى حقوق الإنسان) من قبل الدول المتقدمة التي اغتنت من الاستعمار ومازالت تقتنص مرابح غير متوقعة كسبتها بدون جهد نتيجة جور وظلم النظام الاقتصادي العالمي الذي أقامته. في القرن السادس عشر، اعتنق فكرة "طفل الطبيعة" حكام الإدارات الاستعمارية، لا بسبب الغيرية وحب الخير للآخرين بل نتيجة الأنانية والمصلحة الذاتية. وباعتبارهم بشرا لهم أرواح، ولديهم القدرة على تلقي الدروس والإرشادات، اعتبر سكان أمريكا الأصليون متمتعين بما يكفي من الأهلية للتخلي عن أراضيهم، وأملاكهم، ونفوسهم لسلطة وإدارة القوة الاستعمارية. الأمر الذي ساعد على حل نقطة خلافية في القانون والسياسة البراغماتية الواقعية تثير الارتباك والغيظ والتساؤل. في الإدراك القروسطية للعالم الذي صاغ شكل التوسع الأوروبي، كانت هناك أربعة مفاهيم خلقت الادعاءات بحقوق امتلاك المناطق المتنازع عليها: الفتح؛ الموافقة أو التنازل؛ "الهبة" البابوية؛ الاحتلال الأصلي (الاكتشاف). أما أعظم أو أضمن هذه المفاهيم فكان الموافقة أو التنازل من جانب السكان المحليين، بغض النظر عما

إذا تم الحصول على أحدهما بالخداع، أو بالكذب، أو بالوهم. فالعبيد الذين هم ممتلكات أصلا لا يمكن أن يكون لهم أملاك أو حق بالموافقة أو التنازل، في حين يستطيع "أطفال الطبيعة" ذلك. والأراضي التي فتحت يمكن فتحها مجددا بواسطة دولة أوروبية أخرى. في حين لم تعد لـ"الهبة" البابوية سلطة على الدول البروتستانتية مثل إنكلترا وهولندا والدانمرك. أما الاحتلال الأصلي فمسألة خلافية - حيث شمل أسئلة واستقصاءات مبهمة صيغت بلغة التاريخ التوراتي العرقي، وكانت مبالغة في غموضها إلى حد أنها غير قابلة للتطبيق في العالم الجديد. في الولايات المتحدة، كانت المعاهدات التي تم من خلالها الاستيلاء على الأرض - إضافة إلى جميع الترتيبات البطركية/الأبوية التي اتخذتها الحكومة لإدارة شؤون حياة السكان المحليين الذين سلموا مصائرهم للجمهورية الجديدة - تدعى بـ"القانون الهندي الاتحادي". الأكاديمي الأمريكي فينيس دولوريا (الهندي الأصل)، أستاذ دراسات وتاريخ الأمريكيين الهنود في جامعة كولورادو، أدان منذ وقت طويل هذه العبارة: فهي "لا تنقل أي معنى دلالي تقريبا، ونادرا ما مست عالم شؤون البشر، كما تغطي عددا كبيرا من الخطايا والآثام التاريخية بطلاء قانوني من اللّك"[13]. الطلاء صنع من إطار الجدل المنطقي الذي دار في القرون الوسطى وطبق باستمرار منذ البداية. وبغض

النظر عن سماكة الطبقات، فإن الحقائق تحتها تعطي فكرة العدالة صيتا سيئا.

النقاشات الجدالية في إسبانيا اتبعها بلهف شديد المتحمسون الإنكليز للإمبراطورية. فقد انضمت الأفكار والحجج الإسبانية إلى ذخيرة الجدل وألهمت وشكلت السياق الذي ستؤسس فيه المستعمرات الإنكليزية في أمريكا. وتردد صدى كافة الاستجابات الإسبانية للسكان المحليين في الكتابات الاستعمارية المبكرة في إنكلترا. التوصيف السلبي "ليس لديهم.."، أصبح حجة برهانية لمفهومي "لي" و"لك". فالهنود الذين ليس لديهم مفهوم حقيقي عن الملكية، أي لا يعرفون معنى "لي" و"لك"، هم مجرد "مستخدمين" لأراضيهم وليسوا ملاكا لها. ولذلك، وتبعا للقانون، يمكن طردهم من الأراضي التي يحتلونها. كان هناك أيضا الأكليروس من طائفة المتطهرين (البيوريتان) الذين أكدوا على أن الهنود الحمر هم أطفال الشيطان ومن الأفضل والأربح محوهم والاستيلاء على أراضيهم. أما المقاربة المعتمدة على حد السيف والحرق بالنار، فقد شرعنتها التعليمات المقدمة إلى أوائل المستوطنين، والالتزام بها في ممارستهم العملية. لم تكن المقاومة أمرا لا يمكن التساهل معه فقط، كانت عملا عبثيا لا طائل فيه. وعندما لا يتم اللجوء إلى الأعمال العدائية - كما كانت الحال في "حرب الملك فيليب"، أو

الحملة في مستعمرة ماساتشوستس (1675 ـ 1676)، التي شكلت نقطة تحول رئيسة في العلاقات بين المستوطنين والهنود الحمر، حسبما أكد فرانسيس جينغز في كتابه "غزو أمريكا" ـ فإن أية شكوى من جانب المستوطنين يمكن أن تشكل انتهاكا يبرر ردا عسكريا ساحقا. أو تمارس الديمقراطية دورها في التصويت على نفي وجود مشكلة الاستيلاء على ملكية الأراضي. في عام 1640، أقر تجمع لمستوطني نيوانغلند سلسلة من القرارات المهمة المباشرة:

1 ـ الأرض ملك الرب والغنى منه. (موافقة بإجماع الأصوات).

2 ـ قد يهب الرب الأرض أو أي جزء منها لمن اصطفى من عباده. (موافقة بإجماع الأصوات).

3 ـ نحن عباده الذين اصطفاهم. (موافقة بإجماع الأصوات)[14].

لخص الجدل جون رولف في "الحرب العظيمة التي خاضها بتأملاته". كان رولف متيما بالأميرة الهندية بوكاهونتاس (المرأة الحقيقية، وليست الشخصية الكارتونية التي عرضتها "ديزني" مؤخرا). وفي رسالة كتبها عام 1614، عرض حججه التفصيلية وبحثه عن مبرر للزواج من الأميرة. كانت الرسالة بمثابة دراسة تشريحية جدلية من المسوغات للإمبراطورية. فقد صور نفسه وإخوانه المستوطنين بأنهم يتحملون واجب إقامة مجتمع جديد،

منفصل عن أخطاء وفساد أوروبا. هذا البروز والإعلان والتوكيد على الانفصال كان نصا من العهد الجديد (سفر الكورنثيين، 17:6) له دلالة مزدوجة المعنى في أمريكا. فقد فصل الحجاج أنفسهم عن أوروبا لإقامة وتطوير مجتمع نقي طاهر وأكثر كمالا. لكن هذا وسواه من النصوص المقدسة (عزرا، 10:10 التكوين، 25:9) كانت لها أهمية دلالية مباشرة فيما يتعلق بالزواج الذي يخترق الخطوط الإثنية والدينية، الزواج المختلط من الأعراق الدنسة الملعونة، وبالتالي ستشكل سدا منيعا أمام الزواج الذي نوى عقده. احتاج رولف إلى خط آخر من الحجج للتغلب على ما بدا أنه عقبة كأداء. ووجد حجته البديلة في فكرة أن بوكاهونتاس، برغم وضوح أنها ابنة قبيلة دنسة بربرية، كانت على استعداد لأن تتلقى التعليم والتلقين وبالتالي الانضمام إلى الجماعة المؤمنة بالمسيحية، ولذلك سيحقق زواجه بدقة الهدف التبشيري للاستيطان في العالم الجديد. كانت بوكاهونتاس أول وأشهر من اعتنق المسيحية فيما سيصبح لاحقا الولايات المتحدة الأمريكية. هذه الصورة، تعميد بوكاهونتاس، هي التي نقشت على قبة مبنى الكابيتول (الكونغرس). صورة العمادة أكثر أهمية، من الناحيتين المفهومية والقانونية، من قصص الكابتن جون سميث الطويلة التي تخدم الذات عن بوكاهونتاس. كان سميث مرتزقا وأحد قادة المستعمرات

الإنكليزية الناجحة في ما سيعرف بالولايات المتحدة فيما بعد، كما ألف عددا من من الكتب الشعبية تناول فيه تجربته. في واحد من هذه الكتب فقط تطرق إلى القصة التي أصبحت أشهر أسطورة عن بوكاهونتاس: حين كان سميث على وشك أن ينفذ به حكم الإعدام في قبيلة بوهاتان الهندية، لكن بوكاهونتاس، ابنة الزعيم، وضعت رأسها على رأسه وطالبت بالإبقاء على حياته. وفي الحقيقة، قد تكون هذه هي الأسطورة الوحيدة التي يعرفها معظم الناس عن بوكاهونتاس. وقد شكلت الجزء المركزي من فيلم الرسوم المتحركة التي أنتجته "ديزني" عام 1995.

من خلال استغلال الأفكار القديمة والتلاعب بها، أمكن إجبار العالم الجديد على التأطر ضمن التقاليد والأعراف والمواثيق الأوروبية. وأمكن كذلك الاستيلاء على ممتلكات سكانه الأصليين وتصنيفهم وإزاحتهم لخلق الحيز الفعلي والفلسفي والقانوني لفكرة أمريكا وتأسيسها على قاعدة البراءة. ثم أتى أشد احتفالات النصر إثارة للاشمئزاز. إذ سرعان ما وجد المستوطنون أن معدلات الوفيات بين السكان المحليين ترتفع بشكل ينذر بالخطر. فغزو العوامل المرضة لأنواع جديدة من الأمراض التي أدخلها المستوطنون معهم، ولم يكن لدى

الأهالي مناعة طبيعية ضدها - أدى إلى تدمير مجتمعات محلية وشعوب بأكملها. وبدا وكأن المرض والموت يمهدان السبيل لفتح البلاد وجعل الأراضي متوفرة للمستوطنين. وكان من المفهوم في كتابات الحجاج أن يد العناية الإلهية تشتغل من أجل "العمل الحماسي" لـ"الشعب المختار"، لقد قدر عدد السكان المحليين عند أول اتصال لهم مع الأوروبيين بعشرين وربما خمسين مليونا يعيشون على الأرض التي أصبحت تعرف بالولايات المتحدة. وبحلول تسعينيات القرن التاسع عشر، عند نهاية الحروب الهندية وبعد جائحة الأوبئة والأمراض، ونهب وسلب البراري وترويضها وتدجينها واستيطانها، لم يعد عددهم يتجاوز 250 ألفا!

في القرن التاسع عشر، تراجعت حجة "يد العناية الإلهية" عن موقعها لصالح رومانسية الحنين إلى الماضي مجسدة في فكرة "الهندي الذي اختفى"، والفكرة التجريدية الملفقة التي أمكن بها إبداء الأسف لموت "المتوحش النبيل"، بينما وصل السكان الهنود في الواقع الفعلي إلى حافة الانقراض نتيجة الخطط المقصودة، والقانون المتحيز، والإدارة السياسية الظالمة. أرهصت الفكرتان التجريديتان كلتاهما لظهور مبدأ "البقاء للأصلح"، المفهوم الداروينى الاجتماعي عن الحضارات، والشعوب، والأعراق، باعتبارها خاضعة لقدر الطبيعة المحتوم الذي يخيرها

بين التكيف أو الانقراض. لم تعتمد الحضارة الغربية على القانون البشري وحده، بل لجأت أيضا إلى قوانين الطبيعة - عبر تحويل الفلسفة الاجتماعية إلى قوانين بيولوجية واستغلال وتهجين القواعد الانضباطية للمعرفة الحديثة - لإنتاج "التجريدات النظرية التي أضفت الصفات المثالية على العقلانية البشرية لإعطاء معنى منطقي للأحداث والحوادث التي ما كانت لتأخذه لولا ذلك" [(15)].

يشكل سكان أمريكا الأصليون أحد الأمثلة، الداخلية والأداتية لفكرة أمريكا، على ظرف عام حلت نوازله وبلاياه بالعالم الثالث. وفي الحقيقة، فرض تكييفهم مع الواقع (هدايتهم، تحضيرهم بواسطة بعثات التبشير، تطورهم) فرضا عبر حرمانهم من الحرية العامة والفردية، في حين دفعوا إلى حافة الانقراض، إما من خلال الأعمال الإجرائية المتعمدة (حروب، تجويع، إهمال مهلك) أو استراتيجيات التجاهل والنبذ والتهميش (الإهمال الذي لا يلحق ضررا مباشرا، والإقصاء عن المشاركة الكاملة في شؤون الاقتصاد والسياسة والمجتمع) التي كانت أضرارها مماثلة لأضرار الحرب المباشرة.

يشرح جيمي دورهام العملية وعواقبها بلغة مألوفة يتردد صداها في تجربة شعوب الدول النامية:

القصة الرئيسة للولايات المتحدة لم (ولا يمكن لها أن) تتغير. فقد توسعت، وذاعت، وانتشرت. هذه القصة ليس لها سوى اهتمام سطحي "بترويض البراري" و "اجتياز الحدود الجديدة". لقد طورت الولايات المتحدة مفهوما نظريا وواقعا حقيقيا عن الدولة، ولربما أقول "الدولتية"، لأن ثقافة الولايات المتحدة أيديولوجية بصورة كاملة.. القصة الرئيسة للولايات المتحدة تزعم عدم وجود "هنود" في البلاد، بل مجرد برية مقفرة. ثم ادعت أن "الهنود" متوحشون في حاجة للولايات المتحدة. ثم أشارت إلى أن "الهنود" ماتوا كلهم لسوء الحظ. ثم أصبح الهنود اليوم: 1) سعداء أساسا بالحالة التي هم فيها، 2) ليسوا "هنودا" حقيقيين. ثم، ادعت والأهم من كل ذلك، أن القصة قد اكتملت[16].

وعلى شاكلة الولايات المتحدة، بنى الغرب نفسه باعتباره مشيد المعرفة. فالعلم والمعرفة المؤسسان على العقل هما من ممتلكاته الخاصة، ولذلك فهو يدرس ويعرف الشعوب الأخرى بشكل أفضل مما يمكن أن تعرفه هي عن نفسها. والقواعد الناظمة للمعرفة، مثل الأنثروبولوجيا ودراسات التطور والعلم السياسي، تفسر بقية دول العالم وشعوبه، ولا تنحصر مهمتها في

استخدامها لصياغة علم السياسة وسياسة الغرب فقط، بل في تفسير العالم لذاته. وما يقوله دورهام عن الأمريكيين الأصليين ينطبق على المسلمين، وهنود شبه القارة، وعدد لا يحصى من الشعوب الأخرى. "يعرف العالم جيدا من نحن، وكيف نبدو، وماذا نفعل، وماذا نقول - من رواية المضطهد القامع، المعرفة مزورة، لكنها معروفة"[17]. وبالنسبة لمن يريد أن يفهم الشعوب الأخرى، هذا هو أكثر الأسئلة التي يجب أن يواجهها أهمية وإرباكا وخطورة. "المعرفة الجاهلة" تقليد مألوف. إنها العلم الذي يقدمه الغرب بنفوذه وسلطته إلى نفسه وإلى بقية العالم. يتألف التعليم، الأساس الوطيد لبرامج التنمية المصممة لتحديث الدول النامية، من التعرف إلى تاريخها عبر موشور هذه "المعرفة الجاهلة"، وبالتالي معرفة السر وراء دونيتها. الأمر الذي يفسر الأسباب التي جعلت المعارك المحتدمة حول مضمون المناهج المدرسية أشد أجزاء جدل التعددية الثقافية إثارة للخلاف والنزاع في الولايات المتحدة.

دعونا نوجز ما تطرقنا إليه. الأفكار التكوينية للأسطورة الأمريكية أتت من أوروبا، بعد أن تمت صياغتها من خلال التجربة الأوروبية في "حربها المقدسة" مع الإسلام والحرب الذهانية التي أفرزتها. الهوية الأوروبية تشكلت وتحددت في

سياق المواجهة الصدامية والتعارض مع "الآخر"، خصوصا المسلم، وعملت على أبلسة العدو وتشويه سمعته والحط من قدره. ثم نقلت المواقف التي تشكلت عبر القرون على حدود الصدع الفاصل بين الحضارة الأوروبية والإسلام، إلى أمريكا، حيث وفرت البواعث المحفزة التي جعلت من الممكن إقامة مجتمع جديد. هذه الافتراضات القديمة والمألوفة ليست مجرد تاريخ. فهي تشتغل اليوم في ردود الأفعال الانعكاسية، وأفكار ومواقف الإمبريالية المفرطة في جبروتها. وهي مجسدة في الخطاب الأمريكي الطنان وفي السياسة. ويعاد إنتاجها واستخدامها في كل عملية تدخل للولايات المتحدة في شؤون الدول الأخرى.

القضية المربكة والخطيرة حقا لا تتمثل فقط في الاعتراف بما حدث من غزو، وقتل، وقمع، بل في حقيقة أن المؤسسات والقيم والأفكار التي استخدمت لـ"ممارسة الفضيلة" كانت، وظلت، مسؤولة عن استمرار حالة الإقصاء والنبذ والتهميش؛ وفي أنها تزودنا بالأمثلة العملية على الطريقة التي يتم فيها "مضاعفة الشر والإثم بعمل الخير". خلال الاستيلاء على أراضي سكان أمريكا الأصليين، تم عقد ثمانمائة اتفاقية بين مختلف القبائل والشعوب الهندية من جهة والولايات المتحدة من جهة أخرى، منها 430 تقريبا لم يصادق عليها الكونغرس الأمريكي، رغم

وجوب التزام الهنود بشروطها وبنودها. وكما لاحظ السناتور دانييل كي. اينوي، رئيس اللجنة المختارة للشؤون الهندية في مجلس الشيوخ: ".. والأشد مأساوية أن الاتفاقيات الثلاثمائة والسبعين التي صادقت عليها الولايات المتحدة قد انتهكت شروطها جميعا"(18). أما ديفيد اي. ولكينز الأكاديمي الأمريكي (الهندي الأصل) والأستاذ المساعد للدراسات الهندية الأمريكية والعلوم السياسية في جامعة مينيسوتا، فيشير إلى إضفاء الصفات المثالية على المحكمة العليا باعتبارها القوة التي تمنع الحكومة من إصدار قراراتها الاعتباطية والمفاجئة والمتحيزة، وفي كتابه "سيادة الهنود الأمريكيين والمحكمة العليا في الولايات المتحدة: تقنيع العدالة"، درس خمس عشرة حالة تعاملت فيها المحكمة العليا مع قضايا تخص الأمريكيين الأصليين. "القضايا الخمس عشرة.. رسمت صورة لمحكمة تصدر أحكاما اعتباطية، تعتمد على النزوات المفاجئة والمواقف المسبقة المتحيزة". عواقب قرارات المحكمة العليا هذه:

> لم يكن لها تأثير هائل، ومدمر في أغلب الأحيان، بالنسبة للوضع السيادي القبلي والمسمى القانوني لأراضي السكان الأصليين فقط، لكنها أسهمت إلى حد كبير أيضا في الفوضى والتشوش اللذين يحيطان بالعلاقات بين

أنظمة الحكم القبلية وحكومة الولايات المتحدة. فقد أزالت سلطة الكونغرس سلطة القبائل الهندية، وتناوبت في التوكيد على/ وتجاهل مبدأ الإذعان القضائي للأفرع السياسية. وعلاوة على كل ذلك، ألغت حقوق المعاهدات، وكان لها تأثير عكسي على الوضع القانوني للهنود الأفراد، كما قيدت - وفي بعض الأحيان ألغت، سلطة التشريعات الجنائية القبلية، وعرضت للخطر ممارسة، لا بل وجود الطرائق الروحية الهندية[19].

إذا كان الجواب عن السؤال، "لماذا يكره العالم أمريكا"، هو "لأنهم يكرهون حرياتنا - حريتنا الدينية، حريتنا في الكلام والتعبير، حريتنا في الاقتراع والتجمع والمعارضة والاختلاف"، فإن على أمريكا أن تجيب أيضا عن:

مسألة أكبر تتعلق بالسبب الذي يمنع تطبيق جوهر المفاهيم الديمقراطية عن النزاهة، والعدالة، وقبول ورضى المحكومين، على القبائل الهندية ومواطنيها حتى الآن، برغم الإعلان الواضح لحقوق المعاهدات، والسياسات الفيدرالية حول حق الهنود في تقرير المصير والحكم الذاتي، والسوابق القضائية الإيجابية، والمواطنية الثلاثية[20].

إن قضية السكان الأصليين في أمريكا، كما حاولنا أن نفسر، مجرد مثال يجسد مشكلة أوسع. فالأفكار المتعلقة بـ"العبد الطبيعي" أو "طفل الطبيعة" لم تطبق على تاريخ سكان أمريكا الأصليين فقط. ولقد رأينا كيف عارض لاس كاساس الفكرة الأرسطية عن العبد الطبيعي؛ ومع ذلك كان هو ذاته مالكا للعبيد. وفي مرحلة مبكرة من حياته المهنية اقترح استيراد العبيد الأفارقة إلى الأمريكيتين لتجنيب الهنود عبء العمل المضني المفروض عليهم. وفي حين أنه رفض في نهاية الأمر استرقاق الزنوج "لنفس الأسباب" التي طبقها على الهنود الأمريكيين، ظل حتى عام 1544 يملك عبيدا من الزنوج. أما السجل الأول للعبيد الزنوج في أمريكا الشمالية فيأتي في رسالة أخرى كتبها جون رولف، الذي سرعان ما سيصبح زوجا لبوكاهونتاس. فقد كتب عام 1609 يقول إن عشرين من "الخدم" الزنوج قد تم إحضارهم "بأفضل وأرخص سعر" من سفينة هولندية رست في جيمس تاون[21]. فتطور أمريكا، تماما مثل فكرة أمريكا، "ملطخ بالدم البشري" على نحو مزدوج[22]، و"لنفس الأسباب". الرق جعل مسألة العرق أمرا مركزيا بالنسبة لوجود أمريكا. وتطلب إلغاء الرق حربا أهلية دموية وإعادة تعريف فكرة أمريكا ونظام الحكم فيها، ومع ذلك فشل في إزالة حالة التهميش الدائمة التي يعيشها الأمريكيون الأفارقة. "المؤسسة الغريبة" للعبودية كانت ظاهرة

أمريكية، أو ظاهرة لازمت الأمريكيتين، مثلما برهن الأكاديمي البارز ديفيد بريون ديفيز: كانت متميزة عن شكل العبودية الذي مورس في العالم القديم، أو في أوروبا القروسطية، أو في أية حضارة أخرى. وحمّلت أمريكا إرث مشكلة غريبة واستثنائية لم تجد لها حلا.

يتحدى جدل التعددية الثقافية المعرفة، والقواعد الضابطة لإنتاجها، والصورة الذهنية الذاتية التي صيغت عن فكرة أمريكا. فهو يشير إلى حقائق أخرى لم تكن جزءا في العملية التكوينية لفكرة أمريكا. كما يمثل سؤالا محرجا ومربكا وخطيرا يتناول السلطة المهيمنة على المعرفة، وماذا يعني ذلك في دلالته على حق تقرير المصير بالنسبة للجماعات المهمشة. علاوة على أنه لا يكتفي بتقديم قراءات بديلة للتاريخ وحسب، بل قراءات بديلة للأفكار، والقيم، وطبيعة الحضارات الأخرى أيضا. أما فيما يتعلق بالدعوة الساذجة المسطحة إلى التخندق وراء متاريس أطروحة "صراع الحضارات"، التي تحاول أن تبرهن على أن العداء والكراهية يمثلان المستقبل المحتوم الذي يجب علينا توقعه، فيقترح جدل التعددية الثقافية أن اختيارا مختلفا للحقائق غير المكتشفة يمكن أن يجعل "حوار الحضارات" أمرا ممكنا بالنسبة لأولئك المستعدين للإصغاء والتعلم. ولا غرو أن

يتعرض جدل التعددية الثقافية للاتهام بتمزيق أمريكا نتفا وتفريق شمل الأمة.

ومن أجل توضيح الطريقة التي يقتحم فيها جدل التعددية الثقافية قلب الصورة الذاتية الأمريكية، دعونا نأخذ كمثال أحد الأسئلة المربكة الحرجة: هل قام الآباء المؤسسون للأمة الأمريكية، الذين صاغوا دستورها، باستعارة وتطوير مفهوم الحكومة الاتحادية من نموذج "اتحاد شعوب ايركواي الستة" (اتحاد لخمسة من القبائل الهندية التي كانت تسكن ولاية نيويورك، ثم أصبحت ستة بعد عام 1722)؟ جواب هذا السؤال يتيح كتابة أسفار عن حرية الاختلاف الموجودة في أمريكا. في عام 1977، نشر الأكاديمي الأمريكي (الهندي الأصل) دونالد ايه. غريند، أستاذ التاريخ وبرنامج الدراسات الإثنية في جامعة فيرمونت، أول دراسة استقصائية لهذه الفكرة في كتابه، "الايركواي وتأسيس الأمة الأمريكية". وكان بروس يوهانسون، أستاذ الاتصالات ودراسات الأمريكيين الأصليين في جامعة نبراسكا، أول من خطرت له الفكرة خلال مقابلة مع الأمريكيين الأصليين أجراها من أجل مقالة صحفية كتبها عام 1976 بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لإعلان الاستقلال، وجعلها موضوعا لرسالته للحصول على شهادة الدكتوراة،

وأكملها عام 1979، وتمكن في نهاية المطاف، وبعد أن واجه صعوبات عدة، من نشرها عام 1982 بعنوان: "المؤسسون المنسيون: بنجامين فرانكلين، الايركواي، والأس المنطقي للثورة الأمريكية". وبخلال بضع سنين، وجد كل من الباحثين نفسه في حمأة معركة ضارية حول مقاربة الجدل الأكاديمي العلمي المقبول والتحكم به. كما تعرض الاثنان لإدانات حماسية في وسائل الإعلام الشعبية وذلك مع توسع خطوط المعركة السياسية حول جدل التعددية الثقافية.

الفكرة التي قدمها كل من غريند ويوهانسون ليست جديدة في حد ذاتها. فقد وجدت في الأدب والسياسة في أمريكا كحكاية نادرة، كملاحظة جانبية غير ذات صلة. عضو مجلس الشيوخ وليام ف. والش، وجد معناها في محفوظات الكونغرس عام 1975. وفي مقدمة لمؤلف وليام براندوند "كتاب الهنود في التراث الأمريكي" صدر عام (1961)، كتب الرئيس جون. اف. كيندي عام 1960 يقول: ألهمت جامعة ايركواي بنجامين فرانكلين فنسخها في التخطيط لاتحاد الولايات"[23]. لكن اهتمام غريند ويوهانسون انصب على فهم معنى الحكاية الطريفة بوصفها تاريخا، قراءة مختلفة لمجتمع الأمريكيين الأصليين، حقائق يمكنها تغيير فكرة أمريكا، وهذا ما سبب كل الغضب الحانق والضجة الصاخبة.

في عام 1744 ، كان بنجامين فرانكلين يطبع نصوص المعاهدات الهندية، بما في ذلك كلمات كاساتيغو، رئيس اتحاد ايركواي والناطق باسمه. أوصى كاساتيغو المستوطنين الإنكليز بتبني النظام الاتحادي الذي مارسته شعوب الايركواي كنموذج يحتذى. وفي البدايات المبكرة من خمسينيات القرن الثامن عشر، راقب فرانكلين مجلس الايركواي الكبير لدى شعب اونونداغا. وكان النظام يعمل على شكل جمهورية اتحادية تحكمها مجالس محلية ووطنية تختار الزعماء بواسطة إجماع العشائر. أما المجلس الكبير فمؤلف من هيئة تشريعية واحدة. في عام 1754 ، قدم فرانكلين خطته ("خطة الباني") لاتحاد المستعمرات، مناديا بنظام اتحادي وهيئة تشريعية من مجلس واحد. ودعي زعماء عصبة الايركواي إلى فيلادلفيا لمراقبة المناقشات حول إعلان الاستقلال عام 1775. ولو كان لتاريخ الأفكار أو دراسة انتشار العوامل الثقافية أية أهمية، فإن الحقائق العارية توفر المادة الجوهرية لإثبات التأثر بعصبة الايركواي. كما أن تأثيرها يعني أيضا أن مجتمعا آخر كانت لديه، ومازالت، أفكار عن الحرية الفردية، وحرية التجمع، وصيغا للحكم تعتمد على التمثيل النيابي، وهيكلية فيدرالية تشتغل فيها الديمقراطية لإنتاج نقاشات ومفاوضات سلمية حول شؤون مختلف الطوائف والمجتمعات المحلية. وفي هذه الحالة،

تعتبر جملة القيم التي جرى تشفيرها في فكرة أمريكا مجرد واحدة من تشكيلة متنوعة من الأنظمة الأخرى المؤسسة على القيم المشتركة التي تتواجد في مختلف الحضارات. واعتبرت هذه هرطقة تجاوزت كل الحدود.

الحجة المتزمتة تشبثت بمقولة أن الأفكار المؤسسة لإعلان الاستقلال والدستور - الصيغة المحددة من النظام الفيدرالي للولايات، وحقوقها، وضوابط وتوازنات المؤسسات التي تكون البنية السياسية لأمريكا عبارة عن ابتكارات مستقلة اعتمدت كلية على الأفكار المستمدة من أوروبا. لا سيما وقد اعتبرت بحثا فكريا وعقليا عن المعنى الحقيقي لما دعي بـ"الدستور القديم"، المفهوم الأسطوري للحريات الفردية المدفون ضمن الأسرار الغامضة للتاريخ الإنكليزي. الدستور القديم، الوهم الخرافي الذي هيج أيضا حقبة الثورة الإنكليزية التي امتدت من أربعينيات القرن السابع عشر وحتى ستينياته، يعود إلى ما قبل "الماغنا كارتا" (وثيقة الحريات السياسية والمدنية التي وافق عليها الملك جون عام 1215م)، ليصل إلى الانكلو - ساكسون، الذين كانوا - طبعا - من الأقوام الغازية التي اجتاحت البلاد وطردت سكانها، دون اعتبار عمليات الإبادة الواسعة النطاق التي قامت بها، وذلك تبعا للشعوب السلتية التي كانت تسكن

الجزر البريطانية. الدستور القديم كما هو موجود في إنكلترا لا يتكون من قانون "الحرف الأسود" القوطي، المعروف أيضا باسم القانون المكتوب أو وثائق الحقوق. فمازال الجزء الجوهري من الدستور البريطاني غير مكتوب - وهذا هو غموضه الملغز وميزته العظيمة. وما ليس مكتوبا منه يمكن إعادة صياغته بدهاء في خضم وجلبة الأحداث ليسمح باستيعاب التغيير. أما ما ولد في فلادلفيا فشيء مختلف تماما - دستور مكتوب ونظام مميز واضح للعلاقات بين الهيئات التنفيذية والتشريعية والقضائية. في فيلادلفيا، ناقش الآباء المؤسسون الأفكار المتعلقة بالحكم والحرية - المستمدة من المجتمع القديم والتاريخ الأوروبي - وتنازعوا حول السؤال المتعلق بكيفية منع الاستبداد، استبداد الأهواء على وجه الخصوص، وجماهير العامة على وجه العموم. ثم خرجوا بجواب جديد، وكان الجواب عفيفا ونقيا ومثاليا. هذا التعصب الأرثوذكسي هو القاعدة المؤسسة لما دعاه الكاتب والصحفي دانييل لازار بـ"الدين المدني" الأمريكي. وفي هذه الحالة، اعتبر لازار نفسه مهرطقا نظرا لأنه قدم الحجة البرهانية على أن:

المجتمع لم يعرف أبدا مثل حالة التشظي هذه، والسياسة لم تكن أبدا على هذا القدر من ضيق الأفق وقصر

النظر، في حين أن الكهنوت الدستوري المتوسع (القضاة، الأساتذة البارزون للقانون الدستوري، كتاب الأعمدة الصحفية، وغيرهم) لم يكن أبدا بمثل هذه الدوغمائية. وحتى حين يحاول الليبراليون والمحافظون خنق بعضهم بعضا حتى الموت، فإنهم لم يكونوا أبدا أكثر اتحادا في ولائهم للدين العلماني الذي افترض أنه يعزز لحمة المجتمع بينما هو في الحقيقة يمزقه إربا إربا[24].

الإيمان بالدستور، كما يقول لازار، هو شكل من أشكال التهور الطائش: "فهو يعني اعتماد المرء على فكر الآخرين بدلا من فكره". وليس الدستور، الذي هو أبعد ما يكون عن تجسيد الحكمة السرمدية، سوى جواب مقيد بإسار سياقه الزماني عن مشكلات القرن التاسع عشر. وبما أنه اعتبر الخلاصة المقطرة الصافية لأفكار أوروبا، التي أصبحت ثابتة لا تقبل التغيير في واقع الأمر، فقد بلغ حد "ديكتاتورية مريعة يمارسها الماضي على الحاضر":

الأمريكيون أسرى في الواقع لواحد من أشد أنظمة تقييد التاريخ دهاء ومكرا وقوة، نظام يستحيل فيه شتم الرئيس، والتعرض بالكلمات البذيئة للكونغرس، وكل شيء آخر فيما عدا استعراض جسمك العاري في

بـرودواي، ومـع ذلـك فمـن المحـال عمليا تغـيير التركيـبة السياسـية بطـريقة جوهـرية. الأمريكـيون يعيشـون في ظل نظـام لا يكـتفي بتقييد الحكومة، بل يقيد الديمقراطية أيضـا، ولهذا السـبب أصـبحت السياسـة مؤخـرا عـلى هـذا القدر من الكبت والتدمير[25].

إذا كـان الدسـتور نـتاجا لسـياقه الـزمني، فهـو أيضـا نـتاج تجـربة أولئك الذين ناقشوه وأطروه. وإن شملت تلك التجربة حاجة براغماتية للاهتمام بمجتمعات سـكان أمـريكا الأصليين، فلمَ يكـون تـأثير الايـركواي محـلا لهذا القـدر مـن الخـلاف والـنزاع. لقـد كـان ظـرف وتفاعلات المستعمرات الأمريكية أكثر تعقيدا مما سيسـمح بـه موضـوع "اختفاء الهنود الحمـر". فكيف يمكن ترسـيخ الحقـائق حـول تفـاعل أوائـل المسـتوطنين الأمريكـيين ومجتمعات السـكان الأصليين ثم الاحتفاظ برفض غاضب يمتنع عـن الانخـراط في المعنـى الدلالـي لهذه الحقـائق. بـات بوكـانـان، السياسـي اليميني ومرشـح الرئاسـة عـام 2000، اعتبر الفكـرة "حماقـة بالغـة"[26]. أمـا روش ليمـباو، الـذي يجسـد الـيمين في وسـائل الإعـلام الشـعبية، فـيظن بأنهـا "أسـوأ مـن مذهـب تعديل الـتاريخ. فهـي أكـثر مـن مجـرد تشـويه لـلحقائق. إنهـا إلغـاء الحقـائق"[27]. في حـين اعتبرهـا جوريست روبرت بورك، عملا ذا

دوافع سياسية يرتكبه قتلة أكثر قواعد ومبادئ الحضارة الغربية مدعاة للاحترام والإجلال، وذلك في كتابه "التعثر الأخرق باتجاه عمورية: الليبرالية الحديثة والانحطاط الأمريكي".

يقف خلف الإدانات العنيفة التي أطلقها المدافعون عن القواعد والمبادئ الغربية اتجاه يتكئ على المعرفة الأكاديمية الراسخة، التي ترفع شعارا يقول "لا يمكن لعالم مشهور" أن يقبل بالحقائق المتعلقة بالايركواي. في كتابه "مجادلة الديمقراطية: ميراث الحرية لدى الأمريكيين الأصليين"(1998)، يقدم بروس يوهانسون، النصير المؤيد لفكرة تأثير الايركواي، تاريخا واضحا ومتوازنا عن الجدل الخلافي. أما الموضوع المتكرر فهو الموقف المتغطرس للأكاديميين والعلماء "المشهورين"، الذين يعتبرون أنفسهم حراس بوابة المعرفة المتعلقة بسكان أمريكا الأصليين. ويصف يوهانسون حالة خاصة عن متلازمة شائعة ومألوفة. فقد استولت المعرفة الأكاديمية الغربية على تاريخ المجتمعات الأخرى بشكل كلي، حيث اعتبرتها جميعا - بغض النظر عما إذا كانت مجتمعات سكان أمريكا الأصليين، أو المسلمين، أو الهندوس، أو الأفارقة - موجودة في عالم من التراث الجامد والثابت والماضوي. إذ إن "التراث" تركيب بنيوي خلقه ما

دعاه يوهانسون بـ"التشكيل الأوروبي" - أي تفسير واقع المجتمعات الأخرى من الموشور المشوه للمفاهيم الأوروبية. والأهم من كل ذلك أن الشعوب الأخرى وطرائقها التقليدية موجودة ضمن علاقة تراتبية دونية مع الحضارة الغربية، التقدمية والمتطورة والمتقدمة.

قضية تأثير الايركواي لا تدور فقط حول المصدر الذي نهل منه الآباء المؤسسون أفكارهم. بل تتعلق باحتمالات التنوع. بسلطة الحضارة اللاغربية، أو بالأحرى افتقادها لسلطة تمثيل نفسها، وأفكارها، وقيمها، وتاريخها. القضية تتصل باستحالة وجود حوار عادل يحظى بالاحترام ويخترق حدود الثقافات. فإذا أنتج هذا الجدل حالة من التعصب والغضب داخل أمريكا، فكيف يمكن لبقية العالم أن يتأمل بالدخول في حوار هادئ ومسالم ويحظى بالاحترام مع أمريكا؟

يختتم بروس يوهانسون كتابه بفكرة أن "الثقافة الأوروبية ليست مهددة نتيجة وجود الثقافات الأخرى. وفي الحقيقة، فإن الخطر قد تدفق دوما من الاتجاه المعاكس". لكن تفحص دوافع ومشاعر وأفكار الذات والمساءلة النقدية يعنيان القبول بدرس صعب:

بالنسبة للمفكرين والأكاديميين الأوروبيين، قد يبدو أن إعادة إطار المرجعية الغربية إلى حجمه الطبيعي، باعتباره

مجرد واحدة من بين العديد من وجهات النظر، يؤدي إلى إضعاف مكانته، لكن ذلك مجرد هلوسة بصرية. وسوف يفقد تأثيره. الحقيقة أن أوروبا لم تكن أبدا بحجم ظلها الذي جعلها تبدو على هذا القدر من العظمة [28].

الحجة التي تثبت تأثير الايركواي تتحدى الفهم التقليدي لسكان أمريكا الأصليين، ومجتمعهم وتاريخهم. كما تتحدى السلطة المرجعية للمعرفة الأكاديمية الغربية. إضافة إلى الرؤية الأسطورية المتعلقة بأسئلة مثل من أين أتت أمريكا وماذا تعني. تتحدى نخبوية الحضارة الغربية وإقصاءها لـ"الآخر" وتفوقها التراتبي. فالاعتراف بأن الدستور الأمريكي قد تأثر بأفكار سكان أمريكا الأصليين عن الديمقراطية يعني إطلاق شبح أمريكا الهجينة. وإجبار الولايات المتحدة على مواجهة آخر معاقل الأحكام المسبقة المتحيزة: احتمال اختلاط الأجناس الفكري بكل ما يسببه من قلق وإزعاج. هجينية مبادئها وقواعدها السلوكية والأخلاقية التي تعرف وتحدد كيانها. هذه المشكلة الأخيرة، بكل تبعاتها وعواقبها ومضامينها بالنسبة لهوية وتعريف ما هو أمريكي، هي التي تتحرك تحت سطح جدل التعددية الثقافية. أمريكا أمة من المهاجرين، من مختلف الأعراق والأجناس والمشارب. لكن كل العناصر المكونة

لفكرة أمريكا هي أوروبية حصرا، متحدرة من نسل الحضارة الغربية التي تعتبر متفوقة على كل ما عداها، وذلك بالرغم مما يسيطر على أمريكا حاليا من ارتياب وجهل بأوروبا. هذه النقطة أوجزها تأثير تيار المحافظين الجدد على المؤرخ الليبرالي ارثر شلسنجر (الابن)، وذلك في كرّاسه الجدالي حول مآزق وشراك التعددية الثقافية:

مهما كانت الجرائم التي ارتكبتها أوروبا، فإن تلك القارة هي أيضا المصدر - المنهل الفريد - للأفكار التحريرية للحرية الفردية، والديمقراطية السياسية، والمساواة أمام القانون، وحرية العبادة، وحقوق الإنسان، والحرية الثقافية التي تكون أثمن ميراث لدينا والتي تطمح إليها معظم شعوب العالم اليوم. هذه أفكار أوروبية، وليست آسيوية، ولا إفريقية، ولا شرق أوسطية، إلا إذا كانت بالتبني[29].

الخيار الوحيد الذي يقدمه هذا المنطق لبقية شعوب العالم هو الإذعان، والخضوع، والاستمرار في تلقي الدروس. إنه جهل واسع النطاق يتزيا بلبوس المعرفة. إن الإنكار الصريح لاحتمال أن تأتي أية أفكار عن الحرية والعدالة وغيرهما من الفضائل من الشعوب اللاغربية يجعل الحوار مع الثقافات الأخرى أمرا عديم

القيمة والأهمية. ومما لا شك فيه أن هذه الجهالة المتغطرسة مؤذية وخطيرة. فهي تقدم عالما من طبقتين، وتؤجج مشاعر الكراهية العالمية لأمريكا. هناك، في العالم، الذي قذف به في حلكة البربرية الدائمة، يتخلق ويتعاظم التأييد الشعبي للجماعات المتطرفة التي يتمثل برنامجها الوحيد في المقاومة العنيفة والعدائية للدولة المهيمنة المفرطة في قوتها. ومن أجل تفادي صراع الحضارات، يتوجب على الولايات المتحدة قبول حقيقة أن لكافة الحضارات نفس الحق بالوجود، ونفس الحق بحرية التعبير عن الذات، ونفس الحق بحرية تنظيم مجتمعها على هدي رؤيتها الأخلاقية الخاصة بها. علاوة على كل ذلك، فإن لكافة سكان العالم كامل الحق والحرية بالاختلاف مع أمريكا.